جبرا ابراهيم جبرا

هُلاس

قـــاه قـــاه قـــاه
كضحكة الخنزير في حمأة القواذيرِ
ضُحكتـُـهُ ، ضحكتـُها –
الأسودِ ، السوداءِ ، البغيِّ في الدواخل .
من الاعماق المظلمات وجهٌ كوجه حصان الماءِ
ضُحكتـُـهُ على الشدقين قرقرةُ السواقي
تـَـنِقُّ الضفادعُ فيها الليلَ بطولهِ ،
ضحكةُ الظلماءِ ، ضحكةُ الهزيع الذي ،
سوى الضحكةِ السوداءِ هذهِ ،
لا يعرف صوتاً في الدواخل ...

ثم ينحسر السوادُ ، ويطفو
شيءٌ كالضباب او النـَغَمْ .
ويُسفر وجهٌ شفتاه الريّانتان هما
دعوةٌ وغواية –
وليمةٌ تبدأ وانتصافَ الليل بشفاهٍ

تمزج الخمرَ بالريق على اللسان ،
تقول فيها الساحرة : لا ، لا ، لا ،
وتسلّم ثديين شقّت عنهما قميصاً ليدي .

لا ، لا ، ثم تُسكِت الشفتين على فمي
مسقطةً بين يديّ فاكهتين من غصنٍ طري .
ذراعُها الحريرية دُمِلجتْ حول رأسي
وساقُها من حصار الثوب انهزمتْ
ملساءَ مدملجةً وضارية .
(كم عشيقةً ، كم ليلةً ، كم صباحاً ،
وكم ظهراً وعشيّة ؟
عشرون ، ثلاثون ، اربعون ،
شُقراً وسُمراً اكفّهنّ على عينيّ
غشاواتُ حُلُمٍ وخَدَرْ .)

ساعاتِ الليلِ ، طيري !
طيري وحبيبةُ ليلتي لمّا تزل
تُنهِلني وتستقي –
أ قبلَ الريّ تطيرينَ ،
وكيف تروى هذه العطشى ليدي ؟

يا اجواق غنّي ، خذينا
الى الغاب الضاحك في اعلى الجبلْ
وسطَ رحاب الليلِ ، حفنةً من الازلْ
في وجهِ الفضاءِ ، والافنانُ العوالي تنحني

كأقواس الكنائس الشواهق
والله يهدرُ صوتُـهُ بين الشجر .

يا بحراً امتدّ الى الابدْ ،
يغسل شطآنَ الشمسِ والقمرْ
وهذا الوجهُ بين يديَّ
ما أسيلَ خدّيهِ الباردين !
صبياً كنتُ اقتاتُ على الالحان
تصعد في الغياهب كالنوافير ،
في الكنائسِ ، في الاقبيةِ ، في الخرائب .
بهذا الدفق اغتسلتُ وكلّي غبارٌ وظمأ .
والوَثَنُ هذا ، مُعْجِز العينينِ والشفتين ،
يعذّبني ،
والعُنُقُ الشاهق كالمآذن
تحمله الكَتِفان عبئاً من حُلُم
فوقَ رجراجتين شاردتين —
اشردي ، اشردي ،
معَ صيحات الملائكةِ اشردي ،
مع الشمس اشردي ، مع النجوم اشردي .
لقد افقْنا
ولم يبقَ لنا سوى صحوٍ وبقايا من نَغَمْ —

وقـــاه قاه قـــاه
كقرقرة السواقي تنقُّ الضفادعُ فيها ،
ضحكةُ الظلماءِ ، ضحكةُ الاسودِ ، السوداءِ ،
البغيِّ في اعمق الدواخل .